ليلى بنت سعد

حبيبة المجنون

سيظل التاريخ يذكر "ليلى" كواحدة من أشهر نساء العرب.

فقد شاء القدر أن يتردد اسمها على كل لسان، وأن يصل صيتها إلى كل مكان.

فقط لسبب واحد..

والمدهش أن هذا السبب شديد الغرابة:

إنه الحب.

أحبها رجل من أجمل الرجال.

فدمر هذا الحب حياته، وخلد اسم محبوبته على مر الزمان.

إنه قيس بن الملوح، شاعر قومه، أنجب فتيان القبيلة وأعز رجالها.

كان قيس بن الملوح يتجول على ناقته مستريح البال والخاطر، فمر بامرأة من قومه، اسمها كريمة، وكانت بالصدفة تجتمع مع مجموعة من صديقاتها من بينهن ليلى، فأصرت كريمة على دعوته لبعض الشراب، فوافق قيس وانضم للمجموعة.

obeikandl.com

وهناك وقع نظره على ليلى لأول مرة.

وفجأة اخترقت سهام الحب قلبه.

نظرة، وبعدها أصبح لا يستطيع أن يحوّل عينه عنها، لقد ملكت فؤاده، وتمكن العشق منه، فبان الوجد عليه، رغم حرصه على أن يخفيه عن الموجودين، فأخذ يتشاغل بالحديث مع الأخريات مظهراً اهتمامه بهن، متجاهلاً ليلى، حتى لا تكتشف أنه قد أصبح صريع هواها، فقد أبت كرامته عليه: التسليم بالواقع.

أما هي فقد عرفت سره.

أنبأتها غريزتها الأنثوية بكل ما يعتمل في صدره.

لكنها آثرت أن تجاريه في لعبة التجاهل.

فراحت تدّعي الاهتمام بغيره، فلما نظرت في وجه قيس، وجدته قد امتقع لونه، وتغير، بعد أن لسعته نار الغيرة، فأنشدت هذه الأبيات:

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مكين

تبلغنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثمَّ هوى دفين

فلما سمع قيس منها هذا الشعر، وما جاء به من تصريح: شهق شهقة شديدة، وخارت قواه حتى سقط مغشياً عليه، ومنذ هذه اللحظة تمكن حب كل واحد منهما من قلب صاحبه، حتى بلغ درجة تفوق الخيال،فلم تنقطع بينهما اللقاءات والمراسلات، وتعاهدا على الوفاء

obeikandl.com

والإخلاص، فلما جاء قيس إلى أهل ليلى خاطباً: فوجئ برفض أبيها القاطع له، فلقد كانت قصة حبهما قد اشتهرت بين الناس، وصارت أشعار قيس في ليلى على كل لسان، مما سبَّب لأهلها فضيحة، فرأى أبوها أنه لو زوّجها لقيس: فكأنما يؤكد عليها شائعات السوء، وقد حاول قيس أن يثنيه عن الرفض، بل لقد ذهبت أم قيس بنفسها وأبوه ووفد من عشيرته: يرجونه أن يقبل فيها أي مهر يطلبه، ويرحم عذاب قيس ولوعته، فإن صدمة حرمانه من ليلى كانت فوق احتماله، فقد انهارت قواه ومرض وكاد يهلك. لكن الأب المتعنت رفض توسلات القوم له، وأقسم ألا يزوجه إياها أبداً، وقال: أأفضح نفسي وعشيرتي، وآتي ما لم يأته أحد من العرب؟

ولم يكتف بذلك، بل أسرع وزوجها برجل من قومها، فتزوجته ليلى على الرغم منها.

وبلغ قيس الخبر، فيئس من حياته، واشتد عليه المرض، فأشفق عليه القوم، ونصحوا أباه: أن يأخذه للحج ويدعو الله عز وجل أن ينقذه مما هو فيه.

ونفذ الأب النصيحة، فأخذ قيس وتوجه لبيت الله الحرام، وهناك قال له أبوه: تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى.

فتعلق قيس بأستار الكعبة، وكان قد بلغ به الإعياء درجة قصوى، فأصبح يتحرك ويتكلم بجهد وصعوبة، وصرخ:

اللهم زدني حباً لليلى، وبها كلفا، ولا تنسني ذكراها أبدا.

ورجع قيس من مكة، وهو أشد وجداً وأكثر شوقاً، وكان كلما هاج به الشوق: يذهب إلى ديار ليلى، وهي خاوية من ساكنيها، فيلصق صدره بها، ويمرغ خديه في ترابها، وهو ينشد الأشعار ويبكي لوعته.

وحار أهله في أمره، فكلما عرضوا عليه من النساء من هن أجمل من ليلى، وأعز نسباً: رفض أن يتزوج أياً منهن، عازماً على الوفاء بعهود الحب، عندئذٍ اجتمعت معه بعض نساء قبيلته، يحاورنه كي يكف عن تعذيب نفسه، فقلن له: ما الذي يجعلك تفعل بنفسك كل هذه الآلام والأحزان من أجل ليلى، إنما هي مجرد امرأة مثل باقي النساء، لو سلوتها لوجدت خيراً منها من تبادلك حباً بحب، وتكافؤك على حبك بفيض من سعادة وهناء فتنقذ نفسك من الهلاك؟ فقال لهن: لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها، وعن كل واحدة بعدها، وعشت بين الناس سوياً مستريحاً، فسألنه: ما الذي أعجبك فيها؟ فقال: كل شيء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبني، والله ما رأيت منها قط إلا كان في عيني حسناً، وبقلبي علقاً، وقد جاهدت أن أبغضها لأي سبب فما وجدت، فقلن له: صفها لنا. فأنشد يقول:

بيضاء خالصة البياض كأنها … قمر توسط جنح ليل مبرد

موسومة بالحسن ذات حواسد … إن الجمال مظنَّة للحُسَدِ

وقد ظل قيس مهموماً بحبه، يتلظى بنار الفراق، حتى بدا وكأنه قد فقد عقله، حيث ترك أهله وعشيرته، وهام في القفار، لا يستر جسده إلا ثوب متهرئ، فأيقن الناس أنه قد اختل وأطلقوا عليه لقب "مجنون ليلى"، فأسرعت أمه إلى ليلى، وقالت لها: إن قيساً قد ذهب حبك بعقله، وترك الطعام والشراب، فاذهبي إليه، فربما لو رآك يثوب إلى رشده.

فذهبت ليلى إليه سراً وقالت له: يا قيس إن أمك تزعم أنك جننت من أجلي، وتركت المطعم والشراب، فاتق الله وأبق على نفسك، فبكى، ورد عليها بهذه الأبيات:

قالت جننت على أيشٍ فقلت   الحب أعظم مما بالمجانين

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه   وإنما يصرع المجنون في الحين

فبكت ليلى معه، وظلا يتحدثان لساعات.

بعدها عادت ليلى إلى بيتها، وكانت هذه آخر مقابلة بينهما.

وظل قيس على حاله، نادباً هائماً يقول الشعر في محبوبته حاراً متأججاً بالمشاعر الفياضة، فتغنت العرب بأشعاره، وذاع خبره فلم يعد بين العرب من لا يعرف ليلى ومجنونها، وفجأة مات قيس في وادٍ كثير الحجارة، فحمله أهله بين صرخات النساء حسرةً عليه، وبكاه فتيان الحي الذين أفجعهم موته ونهايته المأساوية، حتى ليلى

وأبوها حضرا معزيين تسبقهما دموعهما، وبينما ارتمت ليلى منهارة تحت وطأة الحزن واللوعة، قال أبوها:

لم أكن أعلم أن الأمور ستصل إلى هذا الحد، ولكنني رجل عربي أخاف من العار وقبيح الحديث، فزوّجتها درءاً للشبهات، ولو علمت أن في ذلك هلاكاً لما فعلت.

وبينما هم يحملون جثة قيس، وجدوا ورقة كتب فيها بعض الأبيات تعبر بكل صراحة عن رأيه في سعد الذي سبب له كل هذا الشقاء، قال فيها:

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى　　شقيت ولا هنيت من عيشك الغضا
شقيت كما أشقيتني وتركتني　　أهيم من الهُلاّل لا أطعم الغمضا

وكما قال قيس الشعر في ليلى، قالت هي أيضاً فيه الشعر، ومن ذلك الأبيات الآتية:

لم يكن المجنون في حاله　　إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى　　وإنني قد ذبت كتمانا

وظلت ليلى على حبها لقيس، حتى بعد وفاته، ولم تكن الأيام إلا تزيدها حزناً على حزن.